

صيد الخاطر

33 - - فصل : شغل الحياة .

خطر لي خاطر و المجلس قد طيب و القلوب قد حضرت والعيون جارية و الرؤوس مطرقة و النفوس قد ندمت على تفريطها و العزائم قد نهضت لإصلاح شؤونها و ألسنة اللوم تعمل في الباطن على تضييع الحزم و ترك الحذر فقلت لنفسي : ما بال هذه اليقظة لا تدوم فإنني أرى النفس و اليقظة في المجلس متصادقين متصافيين فإذا قمنا عن هذه التربة و فعت الغربية . فتأملت ذلك فرأيت أن النفس ما تزال متيقظة و القلب ما يزال عارفا غير أن القواطع كثيرة و الفكر الذي ينبغي استعماله في معرفة الله سبحانه تعالى قد كل مما يستعمل في اجتلاب الدنيا و تحصيل حوائج النفوس و القلب منغمس في ذلك و البدن أسير مستخدم . و بينا الفكر يجول في اجتلاب الطعام و الشراب و الكسوة و ينظر في صدد ذلك و ما يدخر لعهده و سنته إذا هو مهتم بخروج الفضلات المؤذية - و منها المنى فاحتاج إلى النكاح فعلم أنه لا يصح إلا باكتساب كسب الدنيا فتفكر في ذلك وعمل بمقتضاه . ثم جاء الولد فاهتم به وله و إذا الفكر عامل في أصول الدنيا و فروعها فإذا حضر الإنسان المجلس فإنه لا يحضر جائغا و لا حاقنا بل يحضره جائعا لهمه ناسيا ما كان من الدنيا على ذكره فيخلو الوعظ بالقلب فيذكره بما ألف و بجذبه بما عرف فينهض عمال القلب في زوارق عرفانه فيحضرون النفس إلى باب المطالبة بالتفريط و يؤاخذون الحس بما مضى من العيوب فتجري عيون الندم و تنعقد عزائم الاستدراك . و لو أن هذه النفس خلت عن المعهودات التي وصفتها لتشاغلت بخدمة باريها . و لو وقعت في سورة حبه لاستوحشت عن الكل شغلا بقربه . و لهذا سكن الزهاد الخلوات و تشاغلوا بقطع المعوقات و على قدر مجاهدتهم في ذلك نالوا من الخدمة مرادهم كما أن الحصاد على مقدار البذر . غير أن تلمحت في هذه الحالة - دقيقة - و هو أن النفس لو دامت لها اليقظة لوقعت فيما هو شر من فوت ما فاتها و هو العجب بحالها و الاحتقار لجنسها . و ربما ترقت بقوة علمها و عرفانها إلى دعوى قولها : لي و عندي و أستحق فتركها في حومة ذنوبها تتخبط . فإذا وقفت على الشاطئ قامت بحق ذلة العبودية و ذلك أولى لها . هذا حكم الغالب من الخلق و لذلك شغلوا عن هذا المقام فمن بذر فصلح له فلا بد له من هفوة تراقبها عين الخوف بها تصح عبوديته و تسلم له عبادته .

و إلى هذا المعنى أشار الحديث الصحيح : [لو لم تذنبوا لذهب الله بكم و جاء بقوم
يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم]